مَقَامَاتُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة في القُرْآنِ الكَرِيمِ
على حَدِّ عِلْمِ اللّغةِ وَأحاديثِ المعْصُومِينَ عليهم السلام

م.د. ضرغام علي المدني
كلية التربية - جامعة الكوفة

فحوى البحث

بحث حاول فيه السيد الباحث إثبات أهلية اللغة العربية لاستيعاب القرآن الكريم بما حباها الله –سبحانه –من أصالة وكمال ومطابقة اللفظ لمقتضى الحال، بحيث انها وسعت كلام الله –جل وعلا –في التعبير. وقد استدل الباحث على ذلك بما ورد في القرآن الكريم، وما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من ذريته وآله في فضل العربية وشرفها وكمالها مستنداً الى كتب التفسير والرواية. وقد ختم البحث بخلاصة بيَّن فيها نتائج البحث التي وصل اليها.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلم فريضة على كل مسلم، ورفع من شأن العلم والعلماء، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، وجعلهم ورثة الرسل والانبياء، واصلي واسلم على المعلم الاول للبشرية جمعاء، محمد المصطفى الذي أوتي جوامع الكلم فكان افصح من نطق بالضاد، وعلى اهل بيته المطهرين الابرار، وصحبه الغر الميامين النجباء ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين وبعد.

فان خير العلوم واشرفها منزلة العلم بكتاب الله المبين، ذلك الكتاب الذي بوأ امة العرب لتسلّم قيادة البشرية كلها، فكانت خير امة اخرجت للناس، ما ان رعت القران حق رعايته، ولن يتأتى ذلك الا بتعلم اللغة التي انزل بها والتمرس ببلاغتها واساليبها، والعلم بمستوياتها الصوتية، ولصرفية والنحوية والدلالية للوقوف على مقاصد آيات القرآن العربي المبين وسنة سيد المرسلين.

وقد حظيت اللغة العربية بما لم تحظ به لغة من قبل من الاهتمام والعناية بدرسها قديما وحديثا؛ وذلك لكونها لغة التنزيل، الذي انزل الله بها كتابه العظيم لشرفها وسمو مكانتها فقد قال عز وجل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٣] وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[سورة يوسف: ٢].. وبما ان القرآن عربي، والله قد تكفل بحفظه، ومن ثم فقد تكفل بحفظ لغته فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، ولذلك وجدنا علماء العربية يعنون عناية فائقة بدرس اللغة صوتا وصرفا ونحوا ودلالة، ولا سيما درس النحو الذي بلغت مؤلفات العرب فيه حدا لا نهاية له، حتى قال بعض المحدثين ان «علم النحو قد نضج حتى احترق» وهذه مقولة غير صحيحة، فبالرغم من كثرة المؤلفات القديمة والحديثة التي تناولت درس ابواب

النحو ودقائقه ومسائله وتمريناته الا انه لا توجد مشكلة يعاني منها دارسو اللغة العربية اكثر من مشكلة صعوبة درس النحو، ولعل سبب اختياري هذا لبحث قد جاء من:

١. كوني اردت معرفة مدى اهتمام القرآن الكريم فضلا عن المعصوم عليه السلام باللغة العربية، وما وضعت لها من مقامات ومراتب تشريفية.
٢. انني لم أجد من افرد بهذا الموضوع بحثا خاصا مستقلا، وشاملا تناوله من جميع جوانبه، فليس هناك كتاب مستقل استوعب الحديث عن مقام اللغة في القرآن وسنة المعصوم.

وقد اقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهج الوصفي والتحليلي في تناول آيات القران الكريم المشتملة على مقامات اللغة وما لها من اثر في طبيعية القرآن فضلا عن الروايات الواردة عن النبي الاكرم واهل بيته عليه وعليهم الف تحية وسلام التي افصحت عن فضل العربية.

وقد ابتنى البحث على ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة، ويتبعها خاتمة بأهم النتائج.

المبحث الاول:

اللغة العربية كنهها ومميزاتها:

للغة العربية خصائص فذة وميزات منفردة فاخرت بها سائر اللغات، ولأمر ما كانت هذه اللغة وعاء كلام الله ومستودع سره، وفي اللغة: قال الكسائي: لَغا في القول يَلْغَى، و بعضهم يقول يَلْغُو، و لَغِيَ يَلغَى، لُغةٌ، و لَغا يَلْغُو لَغْواً: تكلم. و في الحديث: مَن قال يوم الجُمعة و الإمامُ يَخْطُبُ لصاحبه صَهْ فقد لَغا أَي تَكلَّم"و اللُّغَة: اللِّسْنُ، و حَدُّها أَنها أَصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أَغراضِهم، و هي فُعْلةٌ من لَغَوْت أَي تكلَّمت، أَصلها لُغْوة ككُرةٍ و قُلةٍ و ثُبةٍ، كلها لاماتها واوات، و قيل: أَصلها لُغَيٌ أَو لُغَوٌ، و الهاء عوض، و جمعها لُغًى مثل بُرة و بُرًى، و في المحكم: الجمع لُغات و لُغونَ. قال ثعلب: قال أَبو عمرو لأَبي خيرة يا أَبا خيرةَ سمعتَ لُغاتهم، فقال أَبو خيرة: و سمعت لُغاتَهم، فقال أَبو عمرو: يا أَبا خيرة أُريد أَكثَفَ منك جِلداً جِلْدُك

قد رقَّ، و لم يكن أَبو عمرو سمعها، و من قال لُغاتَهم، بفتح التاء، شبَّهها بالتاء التي يوقف عليها بالهاء، و النسبة إِليها لُغَويّ و لا تقل لَغَوِيٌّ[1]. قال أَبو سعيد: إِذا أَردت أَن تنتفع بالإِعراب فاسْتَلْغِهم أَي اسمع من لُغاتِهم من غير مسأَلة، و قال الشاعر:

و إِني، إِذا اسْتَلْغانيَ القَوْمُ في السُّرَى
بَرِمْتُ فأَلفَوْني بسِرِّك أَعْجَما

اسْتَلْغَوْني: أَرادوني على اللَّغْو، و لَغا فلان عن الصواب و عن الطريق إِذا مالَ عنه، قال ابن الأَعرابي واللُّغَةُ أُخِذَت من هذا لأَن هؤلاء تكلموا بكلام مالُوا فيه عن لُغةِ هؤلاء الآخرين اللَّغْو: النُّطق. يقال: هذه لُغَتهم التي يَلْغُون بها أَي يَنْطِقُون. و لَغِيَ بالشيء يَلْغَى لَغاً: لهِجَ.[2].

وامـــا اللغة في الاصطلاح فهي: وسيلة للتعبير عما يـــدور في خلجات النفس من أفكـار، واخراجــه الى عالم الحس، والادراك الخارجي، وهي خير اداة للتفاهم بين بني البشر، وافضل وسيلة للاتصال ونقل الآراء والافكار بينهم، كما انها كائن حي ّينمو ويتطور، وينتج عن هذا النمو والتطور ارتقاء لغوي تدريجي، يساير الارتقاء العقلي والحضاري، هذا الارتقاء اللغوي ناتج عن تطور ذاتي في اللغة[3].

وتتميز اللغة العربيــة عن اللغات الاخرى بجملة خصائص نذكر اهم تلك الخصائص:

١. انها لغة واسعـــة غنية بالمفردات ذات الدلالات المتعـددة مما كرمها الله سبحانه وخصهـا بنزول كلامه المبارك بها ولعل «سر كون القرآن عربيا فهو، فضـــلا عن ذلك، أن اللغة العربية واسعة كما يشهد بذلك أهل المعرفة باللغات المختلفة من العالم، بحيث تستطيع أن تكون ترجمان لســـان الوحي، وأن تبين المفاهيم الدقيقة لكلام الله سبحانه،

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١٥/ ٢٠٥-٢٥٢.

(٢) ينظر ابن منظور، لسان العرب: ١٥/ ٢٠٥-٢٥٢.

(٣) ينظر اشرف محمد، مكانة اللغة العربية في ضوء تلازمها بالقرآن/ ١٢٥.

فمن المسلم به -بعد هذا -أن نور الإسلام بزغ في جزيرة العرب التي كانت منطلقا للجاهلية والظلمة والتوحش والبربريـــة، ومن أجل أن يجمع أهل تلك المنطقة حول نفسه فينبغي أن يكون القرآن واضحا مشرقا، ليعلم أهل الجزيرة الذين لاحظَّ لهم من الثقافة والعلم والمعرفة، ويخلق بذلك مركزا محوريا لانتشار هذا الدين إلى سائر نقاط العالم»[٤].

ومع تلك السعة لا نجد من يحيط بها الا نبي مرسل يقول الإمام الشافعي: «لسانُ العربِ أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميعِ علمه إنسانٌ غير نبي، ولكنَّه لا يذهبُ منـــه شيء على عامَّتها، حتى لا يكونَ موجودًا فيها مَنْ يعرِفه، والعلمُ به عند العربِ كالعِلم بالسُّنة عند أهلِ الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السُّنن، وإذا فُرّق عِلْم كلِّ واحد منهم، ذهب عليه الشيءُ منها»[٥].

٢. انها لغة تمتاز بتناسق جذرها اللغوي من حيث تصريف الفعل والافصاح عن زمانه وهذا ما تفتقده اليه عامة اللغات.

٣. اللغة العربية لغة محركة لدوائر العقل لما تمتلكه من سعة في المعاني ووفرة في المفردات ومن هنا نجد ان الباري عز وجل يقرن عربية القرآن بالتعقل الذي هو احـــدى مراحل العملية العقلية التي دعـــا اليها القرآن في اكثر من اية من آياته المباركات قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[ســـورة يوسف: ٢]، وقال جل اسمـــه ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٣].

المبحث الثاني:

مقامات اللغة في الكتاب المجيد:

ان كل ذي لُبٍّ لا يخفى عليه ما للغةِ

(٤) ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٧/ ١١٩.

(٥) الشافعي، الرسالة: ١/ ٤٢.

العربية من مقام سام وأهميةٍ عظمى؛ ليس فقط كونهـا وسيلة فكرية لربط افراد المجتمع بعضهم ببعض من خلال التواصل والتخاطب فضلا عن تبادل الافكار والآراء والمعلومات، بل كونها لغة القرآن الكريم والذي هو مظهر من مظاهر عظمة الحي القيوم، ووجه من وجوه قدرته واباع صنعـه، وتجل من تجلياته، ويمكن القول ان الاشياء تكتسب عظمتها الحقيقية عندما تقترن وترتبط بذلك الكتاب المجيد، بل ليس هناك كتاب من الكتب السماوية السابقة اهتم باللغة العربيـة كما اهتم القران الكريم بها اهتماما فائق النظير.

ومن خلال تلك العلاقة التلازمية اكتسبت اللغة مكانتها العظيمة ومقامها السامي، ويجدر الذكـر، حينما نتحدث عن دلائل تلك العلاقة التلازمية بين القرآن الكريم واللغة العربيـة، فإننا نقصد بذلك بيان ما يثبت وجـود هذه العلاقة، وما يدلل على انها حقيقة قائمة بذاتها، وواحدة لا يمكن تجزئتها، كون التلازم بينهما بتقدير الله العزيز الحكيم، اليك بيان مقام اللغة العربيـة بلسان القران الكريم كما افصح عنـه بآياته المباركة وهي كالاتي:

١. اقتران اللغة العربية بالقرآن الكريم، والتأكيد على جهـة ارتباطها بالله سبحانه وتعالى ويظهر ذلك جليا من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فانه تعالى يفصح انه منزل القرآن بوساطة امين وحيه وسيد الملائكة على الاطـلاق جبرئيـل عليه السلام، على قلب خير خلقـه محمد صلى الله عليه وآله وبلسان عربي مبين بمعنى ان جهة ارتباط القرآن الهية محضة، وان ذلك الانتساب عنوان سامٍ، تتطلع اليه جميع النفوس، سواء في ذواتها واعتماد نشأتها ووجودها فضلا عن قدسيتها، ويمتد هذا الارتباط الى اللغة العربية التي نزل بها القرآن، بل وتتصف بما له من مميزات.

٢. ان اللغة العربيـة هي لغة الخلود،

وبقاؤها تلازمي ببقـــــاء القرآن وخلوده، فليس هناك من كتـــاب تكفل بحفظـــه الله سبحانه وتعالى من أيدي المتلاعبين من اليهود ومن حذا حذوهم سوى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[سورة الحجر: ٩].

بمعنى ان حفظ اللغة متعلق بحفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم، وعلى هذا يمكن القول ان هذه اللغة هي الاصلح، والاقوى، والاجدر على ايصال المعنى الدقيق، الى عقل ونفس السامع، من كافة اللغات الموجودة في الوجود، لهذا صار لزاما على كل مسلم ان يفتخر بهذه اللغة، ويعتز بها ويخدمها خدمة للدين القويم، وان يعرفها، ويتعلمها؛ لمقامها ومكانتها الدينية والعلمية.. يقول جوستاف جروني بأوم: "عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمَّدٍ ﷺ أنزلها قرآنًا عربيًّا، والله يقول لنبيِّه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[سورة مريم: ٩٧].

ومـــا من لغةٍ تستطيعُ أن تطاولَ اللغةَ العربية في شرفِها، فهي الوسيلةُ التي اختيرت لتحملَ رسالـــةَ الله النهائيـــة، وليست منزلتهـــا الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودعَ الله في سائرِ اللغات من قوةٍ وبيان، أمَّا السعة فالأمرُ فيها واضح، ومن يتتبع جميعَ اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتِها المدهشة في المترادفات، وتزين الدقـــة و وجازة التعبير لغة العرب، وتمتازُ العربيةُ بما ليس له ضريب من اليسرِ في استعمالِ المجاز، وإن ما بها من كناياتٍ ومجازات واستعارات لَيرفعُها كثيرًا فوق كلِّ لغة بشرية أخرى، وللغةِ خصائصُ جمَّة في الأسلوبِ والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أية لغةٍ أخرى، وهي مـــع هذه السعة والكثرة، اكثر اللغاتِ اختصاراً في إيصـــال المعاني، وفي النَّقلِ إليها، يبين ذلك أنَّ الصورةَ العربية لأيِّ مَثَل أجنبيٍّ أقصر في جميعِ الحالات"[٦].

(٦) انور الجندي، الفصحى لغة القرآن/ ٣٠١.

ويقـــول: ((قال المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس: «إنَّ في الإسلام سندًا هامًّا للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيضِ ما حدث للغاتِ القديمة المماثلة كاللاتينية؛ حيث انزوت تمامًا بين جدرانِ المعابد، ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوبِ التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوبِ القرآن الكريم أثرٌ عميق في خيالِ هذه الشعوب، فاقتبست آلافًا من الكلماتِ العربيـــة، ازدانت بها لغاتها الأصلية، فازدادت قوةً ونماءً، والعنصرُ الثاني: الذي أبقى على اللغةِ العربية هو مرونُتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهمَ كلمةً واحدةً من اللهجةِ التي كان يتحدث بها أجدادُه منذ ألف سنة، بينما العربُ المحدثون يستطيعون فهمَ آداب لغتِهم التي كتبت في الجاهليةِ قبل الإسلام»[٧].

ويقول ابن شبرمه: «اذا سرّك ان تعظم في عين من كنت بعينه صغيرا، ويصغر من كان في عينك عظيما؛ فتعلم العربية، فإنها تجريـــك على المنطق، وتدنيك من السلطان»[٨].

٣. خصت بميزة لم تحظ بها لغة اخرى وهي ان بيان القرآن الكريم لا يتم الا بها قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، ويفصح النص المبـارك عن حقيقة مهمة ان هذا القرآن لا يتم بيانه بلغة اخرى الا العربيـة تلك اللغة التي فاقت أخواتهـــا بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، وان جميع اللغات دونها في البيان قال ابن فارس: «فلما خَصَّ -جل ثناؤه- اللسانَ العربيَّ بالبيـــانِ، عُلِمَ أن سائر اللغات قاصرةٌ عنـه، وواقعة

(٧) المصدر السابق.

(٨) الدينوري، ابن قتيبة، عيون الاخبار: ٢/ ١٧٣.

دونه»[٩].

٤. انها لغة تعقل الكتاب ومفتاح من مفاتح فهم الخطاب الالهي الذي يفتح دوائر الحركة العقلية قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[سورة يوسف: ٢]، يقول الشيخ الطوسي: ان سبب اخبار الله سبحانه وتعالى أنه انزل هذا الكتاب قرآنا عربيا لكي يعقلوا معانيه وأغراضه.. . فهو كلام في أعلا طبقة البلاغة، ووجه بلاغة القرآن كونه في نهاية التلاؤم المنافي للتنافر في تأليف اللفظ والمعنى مع تشاكل المقاطع في الفواصل بما يقتضيه المعنى ومع تصريف القول على أحسن ما تصرف به المعنى... وهناك نكتة لطيفة مفادها ان في الآية دليلا على أن كلام الله محدث، لأنه وصفه بالإنزال والعربية، ولا يوصف بذلك القديم، وفيه دلالة على أن القرآن غير الله، لأنه وصفه بأنه عربي، ومن يزعم أن الله عربي، فقد كفر، وما كان غير الله فهو محدث[١٠].

اذن فللغة العربية مرتبة نالتها من تلازمها لكتاب الله تعالى، وهي الَّتي بأيدينا من حيث ان آيات القرآن بعضها يدرك بالتّعقل فيها وبعض منها له مرتبة أخرى وهي الَّتي لا مجال فيها للألفاظ واللُّغة، ولا سبيل فيها للمفاهيم، ولا ينالها العقل، بل الطريق الوحيد للوصول إليها الطهارة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٧٧-٧٩]، والمتدبر في هذه الآية المباركة يتضح له سبب جعل فهم القرآن مشروطا بلغته كما سبق انفا يقول ابن كثير: "وذلك لان لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل

(٩) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٢١٥.

(١٠) ينظر الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ٩٢.

بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ انزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه ولهذا قال ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾[سورة يوسف: ٢] بسبب ايحائنا إليك هذا القرآن"(١١).

فكانت اللغة عنصرا، يقتضي نزول القرآن بها، بتقدير مدبر قادر حكيم، وعند الاستقراء نجد قد مر اكثر من اربعة عشر قرنا، على نزول هذه الاية المباركة، وليس هناك ادنى دليل على ان لغة على وجه الارض، اكثر مقدرة على تأدية معاني الكلمات الى نفس السامع، ومقدرة على بلوغ اقصى طاقة التعبير عن قصدية النص كاللغة العربية.

٥. ان لها مقاماً عالمياً بين اللغات من حيث انها لغة الدين والعبادة والسياسة فضلا عن كونها إلهيَّة المصدر واللغة المشتركة لعامة الشعوب التي دانت للحكم الاسلامي، يقول ثيودور نولدكه: «لم تصر العربية حقا لغة عالمية الا بسبب القرآن والاسلام؛ اذ تحت قيادة القرشيين فتح البدو، وسكان الواحات، نصف العالم لهم وللإيمان، وهكذا صارت العربية لغة مقدسة ايضا»(١٢).

٦. ثم ان اللغة العربية مقاماً اخر فهي مصدرُ عزٍّ للأمة بوصفها لغةُ القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ بحيث يكون الاعتزازُ بها اعتزازًا بالإسلام، وتراثه الحضاري العظيم، فهي عنصرٌ أساسي من مقوماتِ الأمة الإسلامية والشخصية الإسلامية، وبوسمها وعاء للمعرفةِ والثقافة بكلِّ جوانبها، فلا تكون مجردَ مادةٍ مستقلة بذاتها للدراسة؛ لأنَّ الأمَّةَ التي تهمل لغتَها أمةٌ تحتقر نفسَها، وتفرضُ على نفسِها التبعية الثقافية يقول مصطفى صادق الرافعي: «ما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلاَّ ذلَّ، ولا انحطَّت إلاَّ

(١١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٨٣.

(١٢) ثيودور نولدكه، اللغات السامية تخطيط عام، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب/ ٧٥.

كان أمرُه في ذَهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرضُ الأجنبيُّ المستعمر لغتَه فرضًا على الأمَّةِ المستعمَرة، ويركبهم بها، ويُشعرهم عظمتَه فيها، ويستلحِقهم من ناحيتِها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ؛ أمَّا الأول: فحَبْس لغتهم في لغته سجنًا مؤبَّدًا، وأمَّا الثاني: فالحكمُ على ماضيهم بالقتلِ محوًا ونسيانًا، وأمَّا الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلالِ التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمره تَبَعٌ»[١٣].

واقولها وانا على مضض، إننا نعيش اليوم واغلب حملة الشهادات على ضعف جلي في اللغة العربية بحجة عدم التخصص، في حين بذلهم المجهود في اتقان لغات خارجة عن تخصصهم في بعض الاحيان، والحال ان تعلم اللغة والحفاظ عليها هو من الدين كما يقول السيوطي: «لا شكَّ أنَّ علم اللغة من الدين؛ لأنه من الفروضِ الكفايات، وبه تُعرفُ معاني ألفاظ القرآن والسنة»[١٤].

المبحث الثالث:

مقام اللغة العربية على حد رأي المعصوم عليه السلام:

لم تنل اللغة المقامات الرفيعة فقط في القرآن الكريم، بل كان لها الحظ الاوفر في ما ورد من مرويات عن المعصوم واقصد به النبي الاكرم محمد صلى الله عليه وآله، واهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

فقد وردت الروايات الكثيرة التي تفصح عن مقام اللغة العربية وفضلها ومن جملة تلك المرويات على سبيل المثال لا الحصر:

١. قال النبي الاكرم صلى الله عليه وآله: "هي افضل اللغات"[١٥].

ولعل مقام الافضلية التي نالته اللغة العربية والذي يشير اليه النبي محمد صلى الله عليه وآله يتأتى من عدة امور منها:

أ. شرف الانتساب الى الكتاب المجيد والذي حفظه مُنزله من كل زيغ

(١٣) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم/ ٢٧٣.

(١٤) السيوطي، المزهر: ٢/ ٣٠٢.

(١٥) علي النمازي، مستدرك سفينة البحار: ٧/ ١٤٠.

وتحريف مما طال الكتب السابقة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[سورة النساء: ٤٦].

ب. لما للغة من دور كبير، واثر بالغ في بيان مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة كما بينا سالفا، وهذا مما لا تمتاز به اية لغة اخرى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[سورة النحل: ١٠٣].

ج. عامل التأثير المتوافر في اللغة العربية والذي له دور في استجابة العرب الأوائل للقرآن الكريم فلو أن القرآن نزل بغير اللغة العربية لكان من الممكن ان لا يستجيب العرب لهدايته ونوره بسبب حاجز (الانا) والتعصب الذي كان يعيشه العرب في الجاهلية، كما تشير إلى ذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[سورة فصلت: ٤٤].

بمعنى اننا لو جعلناه -القرآن الكريم- أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت وبينت آياته واجزاءه، فانفصلت وبانت بعضها من بعض بالعربية والبلاغة أكتاب مرسل أعجمي ومرسل إليه عربي؟. أي يتنافيان ولا يتناسبان[١٦].

وقد وهمَ جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لان سائر اللغات إنما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، ومن هنا رد امير المؤمنين

(١٦) ينظر الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٣٩٩.

علي عليه السلام هذا الادعاء بقوله: وهذا جهل شديد لان كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكره جالينوس ولا فرق[١٧].

د. ما تمتلكه اللغة العربية من تأثير روحي لا يتوافر في أية لغة اخرى «إن التفاعل الروحي والنفسي الكامل مع الهداية والنور والمفاهيم القرآنية انما يتحقق إذا كان الكتاب بلغة القوم الذين يراد ايجاد التغيير الفعلي فيهم، لان إثارة العواطف والاحاسيس انما تكون من خلال التخاطب باللغة نفسها، وأما المضمون فهو يتفاعل مع العقل والتفكير المنطقي، وتبقى العواطف والاحاسيس محدودة على الأقل في مجال التفاعل وبعيدة عن التأثير»[١٨].

٢. مقام ثواب الشهادة: فقدر ورد عن النبي الاكرم محمد صلى الله عليه وآله ان الذي يقرأ القرآن الكريم بألفاظه العربية الفصيحة كان له اجر الشهيد المتشحط بدمه في سبيل الله فقد ورد عن ابي نعيم عن حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال: "من قرا القرآن بإعراب فله اجر شهيد"[١٩].

٣. مقام التقويم: من حيث ان من يلحن في قراءة القرآن قَوَّمَ ملك موكل القراءة ورفعها قواما وفقا لما رواه انس عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنّ ملكاً موكّل بالقرآن، فمن (قرأه من أعجمي أو عربي) فلم يقوّمه، قوّمه الملك، ثمّ رفعه قواماً"[٢٠]، وعن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله انه قال: «إذا قرأ القرآن فأخطأ، أو لحن، أو كان أعجميّاً، كتبه الملك كما أنزل»[٢١].

٤. مقام التشريف بانها لغة اهل الجنة: وهذا المقام يجعل من اللغة العربية سيدة اللغات، وهذا تشريف ما بعده تشريف ويستدل على ذلك ما ورد عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: "كلام

(١٧) ينظر ابن حزم، الاحكام: ١/ ٣٢.
(١٨) محمد باقر الحكيم، علوم القرآن/ ٣٣.
(١٩) المتقي الهندي، كنز العمال: ١/ ٥٣٤.
(٢٠) المصدر نفسه: ١/ ٥١٣.
(٢١) المصدر نفسه.

اهل الجنة العربية، وكلام اهل النار بالمجوسية"[٢٢].

بل ورد عن جعفر ابن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: "ما أنزل الله تعالى كتابا ولا وحيا إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهم السلام بألسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام عنه تشريفا من الله عز وجل له"[٢٣].

٥. وسيلة من وسائل رفع الدعاء وقبوله، فقد وردت الروايات الجمة في هذا الصدد نذكر رواية واحدة من تلك المرويات تجنبا للإسهاب والاطالة.

جاء عن ابي جعفر الثاني انه قال: "ما استوى رجلان في حسب ودين قط إلا كان أفضلهما عند الله عز وجل آدابهما قال قلت: قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجلس فما فضله عند الله؟. قال بقراءة القرآن كما انزل ودعائه من حيث لا يلحن وذلك الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله"[٢٤].

٦. محل مودة وحب النبي الاكرم صلى الله عليه وآله للعرب، اذ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه يفتخر بحبه للعرب لأسباب يذكرها ابن عباس حبر الامة عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: «احبوا العرب لثلاث لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام اهل الجنة عربي»[٢٥].

٧. ان اللغة العربية من العلوم الاربعة عند علي عليه السلام، فقد سئل عن العلوم فقال عليه السلام ان العلوم اربعة: «الفقه للديان، والطب للابدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الازمان»[٢٦].

(٢٢) علي النمازي، مستدرك سفينة البحار: ٧/ ١٤٠.
(٢٣) الصدوق، علل الشرائع: ١/ ١٢٦+ المجلسي، بحار الانوار: ١٦/ ١٣٤.
(٢٤) المتقي الهندي، كنز العمال: ٢/ ٢٩٣+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٦/ ٢٢١.
(٢٥) المصدر نفسه: ١٢/ ٤٤.
(٢٦) البروجردي، جامع احاديث الشيعة: ١٥/ ٣٣.

وغير ذلك من الروايات التي تفصح عن مقام اللغة العربية ومدى اهتمام النبي الاعظمﷺ، وائمة اهل البيتعليهم السلام.

بعد هذه السياحة في تقل ما انتظمته المصنفات والبحوث والدراسات مما حوته المكتبات والمواقع الأليكترونية وما أفدناه من أفواه أساتذتنا الكرام، في ضوء فرضية مفادها: ضرورة تدوين مستقل لمقامات اللغة العربية في ضوء القرآن الكريم واحاديث المعصومعليهم السلام، خلص البحث إلى نتائج أهمها الآتي:

١. عامل التأثير المتوافر في اللغة العربية والذي له دور في استجابة العرب الأوائل للقرآن الكريم فلو أن القرآن نزل بغير اللغة العربية لكان من الممكن ان لا يستجيب العرب لهدايته ونوره بسبب حاجز (الانا) والتعصب الذي كان يعيشه العرب في الجاهلية.

٢. إنّ النص القرآني المبارك والسنة المباركة كانا لهما الأثر الجلي في تأصيل مقامات اللغة العربية، وذلك يظهر جليا من خلال الآيات المتناثرة في القرآن الريم والتي تصدح بمراتب سامية رفيعة.

٣. إنّ مقام أساليب النظر العقلي في اللغة العربية وردت في قالب من الفن الرفيع؛ فكانت أدعى للقبول والإقناع؛ وجمعت بين التأثير في العقل بالأصول والقواعد المنهجية في الإحتجاج والجدل، والأدلة والحجج الدامغة الجلية، وإثارة العاطفة بالأساليب البيانية، التي تخاطب الوجدان وتهز العاطفة.

٤. ألفاظ القرآن العربية كلها تلائم بعضها بعضا، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها، غير لائقة بمكانها وكلها موصوفة بحسن الجوار، إذ تتضافر الألفاظ كلها لأداء المعنى المقصود من الإحتجاجات والمواقف الجدلية، بحيث يبلغ ائتلاف اللفظ مع المعنى منتهاه.

٥. ليس هناك لغة في الوجود لها اثر بالغ في بيان مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة كاللغة العربية وعسى ان يكون

هذا من اعظم ما امتازت به قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣].

ثبت المصادر والمراجع:

خير ما نبتدأ به تاب الله المجيد.

١. اشرف محمد، مانة اللغة العربية في ضوء تلازمها بالقرآن، ط١، دار الكتاب، بيروت –لبنان، ٢٠٠٦م.

٢. انور الجندي، الفصحى لغة القرآن، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٧هـ.

٣. البروجردي اغا حسين الطباطبائي (ت ١٣٨٣ هـ)، جامع أحاديث الشيعة، مطبعة العلمية –قم، د. ط، ١٣٩٩هـ.

٤. تيودور نولدكه، اللغات السامية تخطيط عام، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، ط٣، منشورات دار النهضة العربية –القاهرة، دون تاريخ.

٥. الحر العاملي: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط ٣، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ. ق.

٦. ابن حزم ابو محمد علي بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ)، الاحكام في اصول الاحكام، د. ط، مطبعة العاصمة –القاهرة.

٧. الحكيم محمد باقر (السيد)، علوم القرآن، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣–مؤسسة الهادي –قم– ١٤١٧هـ.

٨. الدينوري، ابو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٣٧٦ هـ)، عيون الأخبار، ط٣، ١٤٢٤ –٢٠٠٣، منشورات محمد علي بيضون –دار الكتب العلمية.

٩. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وانواعها، ط١، مطبعة دار الفكر، لبنان،

١٤١٦ هـ-١٩٩٦م.

١٠. الشافعي، محمد بن إدريس (٤٠٢هـ)، الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، د. ط، د. ت، المكتبة العلمية -بيروت -لبنان.

١١. الشيرازي ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٢. الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي(ت٣٨١هـ)، علل الشرائع، ، طبع ونشر المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

١٣. الطباطبائي محمد حسين بن السيد محمد (السيد) (ت ١٣١٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة الأعلمي -بيروت، ١٩٩٧م-١٤١٧هـ.

١٤. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح/ أحمد حبيب قصير العاملي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

١٥. ابن فارس: ابو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (ت٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح/ عبد السلام محمد هارون، ط١، دار إحياء الكتاب العربي القاهرة، ١٣٦٦هـ.

١٦. ابن كثير: عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ط٤، دار صبح، بيروت، ٢٠٠٧م.

١٧. المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان فوزي (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة -بيروت ١٩٧٩م.

١٨. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تح/ محمد تقي اليزدي، محمد باقر البهبودي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.